الاستعمار جريمة ضد الإنسانية... و جريمة حرب

بقلم: بشير بومعزة

أود في البداية أن أشكر وزارة المجاهدين على هذه المبادرة، و أقول من الآن أنني أتمنى أن تكون هناك ندوات أخرى، و كلنا يعرف، أنه يتعذر علينا في الوقت قصير دراسة موضوع من هذا النوع، و أتمنى كذلك الاستمرار في مثل هذه الأعمال. وما أريد طرحه هنا، هو ذلك السؤال الهام: ماهو الاستعمار؟ فالاستعمار كما هو معروف جريمة ضد الإنسانية، لكن هل هو جريمة حرب؟ لقد حررنا بلادنا سنة 1962، و بعد التحرير السياسي تبين لنا أن هذا التحرر السياسي ليس كاملا، و يحتاج إلى تحرير اقتصادي، واليوم فإن السؤال المطروح علينا حقيقة، لقد حررنا نفسنا سياسيا و حررنا نفسنا اقتصاديا، و استرجعنا لغتنا الوطنية، و عربنا الكتب... لكن هل كل هذا التعريب حرر أفكارنا من التسلط الثقافي الذي أتى به الاستعمار؟ و هذا ما يرجعنا إلى السؤال الجوهري: ما هو الاستعمار بمفهومه الفلسفي والثقافي والحضاري، فهل احتلال البلاد استعمار؟ سمعنا أحدا من قبل تكلم عن سقوط غرناطة حيث بقي المسلمون هناك ما يقارب الثمانية قرون، هل هذا استعمار أم لا؟ فهل احتلال إقليم هو استعمارا؟ نعم احتلال إقليم هو شكل من أشكال الاستعمار لكنه ليس استعمار كاملا. في الحرب العالمية الثانية احتلت فرنسا من طرف ألمانيا لعدة سنوات هل هذا استعمار؟ فلابد من أشياء أخرى، هذا وجه، زاوية من زوايا الاستعمار، فما هو الاستعمار فهل

هو الاستغلال الاقتصادي؟ نعم هذا وجه من وجوه الاستعمار، و نحن في سنة 1992 طرحنا أن سقوط غرناطة، و ما يسمى باكتشاف أمريكا، و قلنا بأنه ليس اكتشاف قارة و إنما إبادة ما بين القارات، و التسلط الفكري الذي كان موجودا حتى في الوطن العربي و الإسلامي، ففي معرض" إشبيليا" الذي دام سنة تقريبا احتفالا بمرور 500سنة على اكتشاف أمريكا بين قوسين، و حضرته ما يقارب30 دولة عربية وإسلامية و قلنا في ذلك الوقت بأن هذه غلطة، لأن اكتشاف أمريكا بين قوسين، مرحلة هامة من تاريخ الإنسانية، كيف؟ لأن الاستعمار بمفهومه المعاصر يبدأ من تلك المرحلة. الاستعمار في رأينا قبل أن يكون استغلال شعب لشعب، أو احتلال بلاد أو حكم أو ظلم أو حتى مجازر وحشية، فهو أولا مفهوم فلسفي وثقافي، ونحن نتساءل لماذا اختار الغرب سنة 1492 لتحديدها بمرحلة ابتداء التاريخ المعاصر، فزيادة على الاحتلال، وزيادة على الاستغلال، كل هذا نتيجة فكرة غريبة تبحث في مرحلة معينة من تاريخ هذه الشعوب التي يطلق عليها مع الأسف مرحلة قرون التنوير، هذا ترك لنا "إنسانية" لكن هذا المفهوم في أصله كان عنصريا، أي نظرة إلى العالم تظهر كما قال "جون بول سارتر" (Jean Paul Sartre) في مقدمة كتاب "فرانتز فانون" (Frantz Fanon): لم يكن منذ بعيد، كانت الأرض معمورة بـ 02 مليار ساكن و500 مليون فرد، أي من 02 مليار و500 مليون

نسمة، كان هناك 500 مليون فقط ممن ينتمي إلى سلالة بني البشر. وهذه النظرة نجدها في الفلسفة الحضارية والثقافية والأوروبية.

قلت مرة في التلفزة مثلا عربيا، على الرغم من أن لغتي العربية مكسورة بأن "قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر، وقتل شعب كامل مسألة فيها نظر". إن نظرة الغرب إلى بقية العالم، نجدها في ثقافته، وأعطي مثالين اثنين على هذا:

- أعطي مثالا عن شخص إنساني (Humaniste) من القرن الماضي هو "هنري دوران" مؤسس الصليب الأحمر الدولي، وهو رجل دين ومسيحية وإنسانية ومتشبع بالإنجيل والتوراة، وبأفكار "سان سيمون" (Saint Simon) الإنسانية لكن هذا الشخص، الكثير لا يعلم بأنه كان معمرا هنا بمنطقة خراطة وعين الكبيرة، جاء إلى هنا مع الجالية السويسرية واغتنم العلاقة التي كانت تربطه مع الضباط ليصبح ملاكا في سطيف، في الوقت الذي كان الجنرال "سان أرنو: الذي حملة مدينة العلمة اسمه، يقوم بالحملة الثانية بجبال البابور لاحتلال جيجل، وهذه الحملة وهذا الغزو، وهما مؤامرة 100% مع انقلاب كان يحضر له بفرنسا حتى يعتلي "نابليون الثالث" (Napoléon 3) العرش، وكان الجنرال "أرنو" تنقصه نجمة، أراد أن يربحها في البابور، ولهذا فإنه يقول في إحدى رسائله، بأنه يقوم بحرق الديار، وقام بضجة كبيرة حتى يصبح وزيرا للدفاع،

لكن هذا الشخص "دوران" كان موجودا في ذلك الوقت إذ كان من خلال رسائله إلى مواطني سويسرا، يشجعهم على المجيء إلى الجزائر وأنتم تعرفون أن منطقة عين أرنات إلى خراطة وجيجل، كانت مليء بالسويسريين، وانظروا جيدا للمثال الذي يعطيه لهم، إذ يقول: "إن طول السنبلة الواحدة هنا مساو لطول الرجل، لكن الناس لا يحصدون"، أنظروا إذن لهذه النظرة الأوروبية، فالأوروبي حتى وإن تغذى بالمسيحية وبالفلسفة الإنسانية إلا أن نظرته لنا فيها عيب وناقصة. ولو لم يكن فيها عيب، لطرح على نفسه سؤال ويقول: من زرع هذه السنبلة ومن حرثها ولماذا لم يحصدها الآن، لقد كان هنا الجنرال "سان أرنو" وسط مجازره، فلم يشاهد "دوران" شيئا من هذا. لكن من جهة السويسريين، وليسمح لي السويسريون لأنني كنت أعيش عندهم في المهجر، فكر وقال أنه لابد من توسيع الأراضي ثم لابد أن أدخل صناعة السميد، لكن لابد من الماء.. كل طلباته لم يكن لها جواب، قال أذهب لأرى "نابليون الثاني" (Napoléon 2) وعندما وصل إلى مرسيليا (Marseille)، قالوا له لا داعي لأن تكمل طريقك إلى باريس، لأن نابليون خرج في حملة إلى إيطاليا والنمسا، وحين وصل على هناك اهتز قلبه من هول المجازر، وهنا فتحت عيناه، وشعر كأوروبي، إنه لم يشاهد المأساة والبربرية التي ارتكبت في حق سكان سطيف.

وأعطي مثالا ثانيا، لأوضح التسلط الفكري لأنني أريد الوصول

إلى خلاصة وهي: التسلط الفكري ليس علينا فقط، بل عانى منه الفرنسيون وحتى الأوروبيون، لأنني لا أريد تحرير أفكارنا فقط، وإنما أريد تحرير أفكار الأوروبيين أيضا من هذا التسلط الثقافي والاستعماري.

والمثال يرتبط بشخص "فرانسوا متيران" (François Mitterand) الذي دخل التاريخ مع وزير عدل فرنسي، حيث كتب التاريخ الغربي بأن هذا الشخص قضى على حكم الإعدام باسم الإنسانية، ويشير التاريخ أن المقصلة توقفت عن العمل في الجزائر منذ 1831 و لم ترجع إلى عملها إلا في عهد "ميتران" وذهب ضحية المقصلة 61 جزائريا، ويقول أحد خصوم "ميتران" بأن هذه المقصلة من كثرة عملها أصبحت غير حادة وتوقفت، مما دفع بوزارة العدل إلى تقديم طلب إلى "فرانسوا متيران" للحصول على أخرى الأمر الذي أدى بـ" فرانسوا متيران" إلى طلبها بدوره من زميله وزير الدفاع الذي قدمها له بالمجان، وهنا نلاحظ العيب في النظرة الثقافية، لقد أردت أن أقول منذ البداية أن هذه نظرة الغرب لبقية العالم، تعال وهيمنة وبأن له مهمة حضارية ينبغي عليه أن يؤديها وفي سبيل تحقيق هذه المهمة، فهو يقتل ويذبح لمصلحة الإنسانية، ومن أجل تقدم الحضارة ! فعندما تتكلم عن التسلط الفكري، وهذه حقيقة أقولها، فإننا تحرر الأوروبيين وليس الفرنسيين فقط، إن بعض الظن إثم، لكن أشك في بعض الهجمات السهلة في الجزائر على

حزب فرنسا، وهذا يعني طأنهم مع الحزب الأجنبي سواء كان فرنسيا أو أمريكيا أو حتى ناطقا باللغة العربية، الاستعمار بالنسبة إلينا مفهوم شامل، لقد قال " الجنرال ديغول(Général de gaulle) عبارة عظيمة يهاجم فيها أمريكا والسيناتور (Sénateur) "كيندي" (Kennedy) في حرب الجزائر، يقول " أوروبا من الأطلسي إلى الأورال، وأمريكا إبنتها". لقد أرجعنا إلى سنة 1942 وأراد أن يقول لأمريكا بأنها إبنته، فكروا معنا جيدا، فإن فكرنا جغرافيا فإنه لا توجد خمس قارات، إنما ثلاثة فقط، فأمريكا، أبيد شعبها وعوّض بالأوروبيين، نفس الشيء بالنسبة لأوقيانوسيا (أستراليا وزيلاندا الجديدة)، فأوروبا نشرت كثافتها السكانية بالقضاء كليا على شعوب قارات بأكملها، هذه المسألة يتفق تحولها الأوروبيون من اليمين إلى اليسار ونفس العبارة وجدتها عند البابا فيما يخص الحضارة المسيحية، نحن نقول بأن المسيحية سامية، لكن هذه المسيحية ابتداء من مرحلة اليونان وروما، أضفوا عليها الصيغة اللاتينية، لقد سمعت بالتلفزة شخصا يتحدث، وقد اتضح لي أن هذا الشخص العالم الكبير، الشيخ، لم يحرر أفكاره بعد، لقد أخلط بين المعارف، وبقيت عقليته جامدة، والدليل على ذلك أنه عندما تكلم عن الشعب اليهودي قال بأن أصل الأنبياء يهود، ومن وجهة نظر إسلامية هذا غير صحيح .. أنا ربما أكون قد ارتكبت جريمة في عيد الأضحى عندما استدعيت "

مونسينيور كيسي"(Monseigneur Caissier) إلى جانب جماعة من رجال الدين لأكل الكسكسى، وقلت لهم بأنني أطبق القرآن، بأن اليهود والنصارى، يتقاتلون على انتمائهم لإبراهيم الخليل، لكنه لم يكن يهوديا ولا مسيحيا، فقد كان مسلما، وقراءة بسيطة مسلم لمسلم في هذه البلاد تأخذنا إلى محمد (صلى الله عليه وسلم)، والقراءة المفهومة للإسلام بأنه دين الإنسان ويجمعنا إبراهيم الخليل، ولو أنني وجدت عنوان حبر اليهود بفلسطين لاستدعيته لأقول له بأن هذه رسالة الإسلام وأصل الإسلام مع الدفاع على حضارتنا، لأن الصراع بين إسماعيل وإسحاق، أنه لن يكون من العرب أنبياء، فالقرآن أظهر بأن لكل شعب نبي وليس هناك تفاوت، وليس هناك شعب الله المختار، أو أرض الله المختارة، هكذا نفهم الإسلام، وعندما يقولون أنبياء يهودا فهذا لا يتوافق مع القرآن، وغير متوافقة مع العلوم لأن كلمة يهودي لها تاريخ، وتعود إلى مملكة يهودا، ثم أصبحت فكرا سياسيا وطبقت بآراء ضيقة وشوفينية في الأرض الموعودة فلسطين، حتى الإنجيل نجد فيه أن الرحالة يذهبون إلى الجنة والمتحضرين إلى جهنم. والمتحضرون من هم؟ إنهم الفلسطينيون والرحالة منهم؟ إنهم العبرانيون .. لكن يوم تغيرت الأمور، أصبح المتحضرون رحالة، والرحالة متحضرين..

ننظر إلى فقرة أخرى من الإنجيل لنجد العكس، فالمتحضر يذهب إلى الجنة والأخر إلى جهنم، فهكذا كتب التاريخ، وهكذا

تكوّن الفكر اليهودي – المسيحي، هذا الفكر الذي انصهر مع الفكر الأثيني واللاتيني والروماني، هذا الفكر الذي فرض نفسه على العالم بشكل إنفرادي، وينظر إلى العالم بشكل إنفرادي، وينظر إلى العالم كما قال " جان بول سارتر" (Jean- Paul Sartre) أن هناك سكان وهناك بشر، وأول ما برز هذا الفكر فيما عرف باكتشاف أمريكا. إذا طرحنا القضية بهذه الكيفية، فإننا نقول حتى ولو أن الوقت لم يسمح لنا وكان عددنا قليلا، فإننا مع كتابة صفحة جديدة من التاريخ، أطلقوا عليها اسما ترغبونة، مراجعة كتابة التاريخ أو إعادة النظر في كتابة التاريخ، لأننا نأخذ دائما بعين الاعتبار، بأنه رغم التعريب لازالت الأفكار متسلطة عليها أشياء، و أعطي ثلاثة أو أربعة أمثلة لأقول بأنه ينبغي تحرير فكرتنا بالتعريب غير أن المنهج والمادة مازالا غربيان"شوي نقوم" (chewing-gum). قلت أعطي ثلاثة أو أربعة أمثلة فيما يخص كتابة التاريخ، لأن الطرح ينبغي أن يكون هكذا لمراجعة كتابة التاريخ. ذكر أحدكم، من قبل، مجاعة1867، و تكلم عن كنز خزينة القصبة، وعن تغيير الاقتصاد، فتركيبنا الثقافي يتسلّط عليه التركيب الثقافي الاستعماري، لأن الاستعمار كما قلنا من قبل فكرة وثقافة وفلسفة وكل شيء آخر، فكل هذا آلت من الفكرة الاستعمارية فلما غاب الاستعمار بوجه الاحتلال والاقتصادي و حتى اللغوي لكنه بقي متسلطا ثقافيا، وهذا يعني

أنه لم يمت بعد، ومن الضروري محاربة الفكر الاستعماري لأن هذا واجب علينا، وعندما لا نحرر فكرنا و نتكلم عن مجاعة 1867 التي قضت على 26% من الجزائريين حسب لوشي و 20% حسب آخر، فالقراءة التقليدية موروثة من ناحية الغرب، ونقول بأنه الجراد والجفاف كانا سببا في المجاعة و المجاعة كانت سببا في مرض الكوليرا، الذي سبب هذا العدد، لكن لنحرر أفكارنا فإننا نقول، بأن هذا البلد الذي يصيبه الجفاف كل عشر سنوات، لماذا لم يمت فيه ربع الجزائريين، وهنا نبدأ في الاقتراب من الحقيقة، نقول لكي نفهم مجاعة 1867، ينبغي أن نفهم عشرات السنين التي كانت من قبل ونفهم سياسة الغارات، و تحطيم حمايتنا الاجتماعية كالمطمور والتضامن الاجتماعي و تكسير تركيبة المجتمع، أخذ فرنسا لأراضي الجزائريين، وهروب الجزائريين من الغارات، وهذا ما أدى بالجزائريين إلى الفرار باستمرار و تعرضهم لعملية تفقير و كل هذا أدى إلى تلك المجاعة الكبيرة، وإذا طرحنا هذه القضية بهذه الكيفية واقتنعنا بها، فإننا نقول بأن هذا جريمة حرب ضد الإنسانية، و سأعود فيما بعد إلى جريمة حرب وجريمة حرب وجريمة ضد الإنسانية.

أعطي مثالا ثانيا، قلت لـ"جيسكار ديستان" شخصيا عندما كنا نحن الاثنان نشغل منصب وزير الاقتصاد، وكنا نتكلم عن الاتفاقيات حول الخمور، قلت له: الآن وجها لوجه سيدي الوزير

إنني سأتكلم معك بصراحة و ربما تجرحك، و ربما لا أستطيع أن أقولها لك أمام الوفود، فنحن نطالبكم بتعويضات عن الحرب مثلما طالبتم أنتم ألمانيا بعد ما حطمت اقتصادكم، هو نفس الشيء الذي نطلبه منكم اليوم. فالماريشال بيجو عندما أتى من بوردو إلى هنا كقائد للقوات الاحتلالية وحاكم، وكان من بين ما يقوله للفرنسيين عندما يستولون على الأراضي، أن يطلب منهم زراعة العنب بالكمية التي تلبي حاجياتنا فقط، حتى لا ينافس الاقتصاد الجزائري الاقتصاد الفرنسي، وبالخصوص اقتصاد بوردو، منطقة المحاصيل لصناعة الخمور في فرنسا التي حطّمت عشرات الآلاف من المزارعين الفرنسيين فأفلسوا، وهنا تغير الاقتصاد الجزائري مصدرا للمنتوجات الزراعية، و اليوم أصبحت الجزائر أول مستورد للقمح في العالم و أسمح لنفسي لأقول بأن هذا من مخلفات الاستعمار، لقد أصلحت من الناحية المادية، لكن من الناحية المعنوية والذهنية بقيت دائما سجين الثقافة الاستعمارية، لقد جمعت بين الفلاحة وبين الصناعة والثراء، ولم ألاحظ أن زيلاندا الجديدة، الدانمارك، أستراليا، و كندا، هي قوى فلاحية، و لم أشاهد شيئا واحد هو: أن الولايات المتحدة الأمريكية هي الأكبر قوة فلاحية في العالم و هي التي استطاعت أن تخضع كلا من الاتحاد السوفياتي سابقا و الصين الشعبية، لكن تكويني الفكري الخاضع للاستعمار، جعلني لا أفهم

الوضع كما ينبغي، فهذا إذن تخلّق، و تبعية ثقافية.

لقد طرح أحد الإخوة قضية الخزينة. وهذا الأخ لا بد أن يكون مكانه في مجال الدبلوماسية، لأنه هاجم تونس و لم يتكلم عن الجزائر، لا، نحن كذلك في الجزائر، طرحت علينا قضية التعويضات فيما يخص تأميم الأراضي، و الحقيقة لو قمنا بالمحاسبة التاريخية، لكان الأجدر بهم أن يغرموا لنا أكثر، إذ يجب بداية أن نرى كيف أخذت تلك الأراضي وثانيا كيف تم استغلالها، ومدة هذا الاستغلال وهذه الخزينة، لقد كان النقاش الكبير آنذاك فيما بينهم مثلما نتكلم نحن اليوم عن الـ26 مليار التي سرقت، لقد كانوا يتكلمون بنفس الفكرة، لقد كانوا يقولون أن الجنرالات هم الذين سرقوها، و أن الكمية أكبر، وقدموا عدة أرقام نأخذ الرقم الأخير و الأصغر، و كما قلت من قبل سنحاول أن نعيد التقييم على أساس أن أجرة العامل آنذاك كانت أقل، لقد كانت تساوي فرنكا واحدا، لنجد أن المبلغ يساوي رقم المديونية وأكثر منها، هذا هو الشيء الذي أردت أن أقوله في المداخلة. أردت أن أقول كذلك أنه حان الوقت لأن نتحقق، أنه حتى وإن عرّبنا ألسنتنا، وأقول لكم شيئا ربما لم تسمعوه من قبل، وهو أن اللغة العربية و التعريب ليسا دائما ووسيلة للتحرر، إذ أن هذا يتوقف على الهدف من التعريب. أستطيع أن آتي لكم بأمرية ملكية" Ordonnance" لسنة 1833 جاء بها الماريشال" بيجو"

ليفرض على الإدارة أن تتعرب.. والعربية التي تسمح لهم بالسيطرة على الجزائر، إذن فالعربية التي نريدها و التي هي ضرورة حتمية، هي عربية تسمح لنا وتعيننا على التحرر المادي والذهني، ويجب ألا نقع في النقاشات الخاطئة، لا فالعربية لا بد منها.

إذا تكلمنا عن ما يسمى باكتشاف أمريكا، الناس تتكلم عن السفن الإسبانية التي احتلت أمريكا، و لكن لم نقل ما هو الشيء الذي يوفر الشروط، أن إسبانيا، البلد الأقل استعدادا لاكتشاف أمريكا، لكنه مع هذا كان أول بلد يقوم بهذا الاكتشاف الأول، و من بين الأسباب الكامنة وراء هذا نجد:

توحيد اللغة. ففي سنة1492 أقرّ(la Castillan)اللغة الوطنية الرسمية الإسبانية، وقد فرضت هذه اللغة على اللغات المحلية الأخرى، وحددت لها أهداف، ومن هذه الأهداف فتح قارات جديدة و أثراء أوروبا، ومساعدة أسبانيا على غزو القدس. مازالت في غرناطة صور الصليب ضد الهلال، و سنصل إلى" فيليب الثاني"(philippe2) والملك الكاثوليكي، وإلى المحاولات الأخرى للهيئة على العالم الإسلامي، وهذا هو الهدف، والوسيلة هي اللغة. واكتشاف الذهب لتحرير القدس، وهذا يرجعنا إلى الفكر الثقافي الفلسفي الذي تطرقا إليه في البداية، و أن أقول أن الفكر الإنساني الذي يتبناه الغرب يحمل وراءه أهدافا، فقد ظهر الفكر الإنساني في نفس الوقت مع المركانتيلية، فطلبة الاقتصاد يدرسون الكلية

المركانتيلية، فما هي المركانتية؟ إنها تقوم على فكرة بسيطة...

إن تفوق أي دولة على دولة أخرى اليوم يقوم على القنبلة الذرية، أما تلك الفترة فقد كان كسب الذهب، وقد كان مسابقة للحصول على كنز واكتساب الذهب، وهذه هي المركانتيلية، فهي كانت وسيلة لفكر إنساني، كما قلت، يحمل نظرة عنصرية تنقص من قيمة بقية سكان المعمورة، وأنا أتذكر في ذلك الوقت بأنه كتب: "La Contre Inverse De La Valadoline" وفالادواين في اسبانيا والبرتغال هي مدينة دينية وقد طرحت القضية على الكنيسة، هل الهندي الأحمر إنسان؟ وهل من المحتمل ومن ممكن أن ينفذه المسيح ؟ وقد دام النقاش حول هذه القضية أياما وأياما. وفي الحقيقة فقد طرحت الكنيسة هذا السؤال لأنها كانت تطمح إلى أمرين: الأول توسيع مجال المسيحية، والثاني إرضاء رغبة الطبقات المهنية التي كانت تريد إبادة الهنود الأحمر وجلب العبيد من إفريقيا.

إن مثل هذه القضية لم تطرح علينا، فبدون مجاملة أو عنصرية أو شوفينية فانا لما أتذكر الرسول (ص)، أرى بلال الحبشي الزنجي على يمينه، وسليمان الفارسي من جهة، وشعيب اليوناني من جهة أخرى، تطرح القضية كذلك حتى الصراع بين المسلمين، فالخوارج يقولون أن الزنجي ابن الزنجية، حتى وإن كان انفه مفتوحا، يمكنه ان يصبح أمير المؤمنين، فلا فرق بين هربي أو أعجمي إلا

بالتقوى.

إن الفكر العنصري لازال مسيطرا على مسيرتنا، لقد تحررنا سياسيا ونحن الآن في طريق التحرير الاقتصادي لكن إذا لم نحرر أفكارنا ولم نحرر أفكارهم من هذه الفكرة العنصرية الشاملة على دورهم الحضاري في العالم ففي ذلك تكمن كل الأخطار، وإذا تحققنا من هذا، يتحتم مراجعة كتابة التاريخ وتقييم التاريخ بوجهه الاستعماري سواء الفرنسي أو الإنجليزي. إن العلاج من المشاكل التي سوف تطرح أمامنا نحن في جمعية 08 ماي 1945 وبمساعد والسيد وزير المجاهدين الذي أرادنا أن نطرحها على المفكرين والباحثين الموجودين هنا وأن ننبه أن مهمتنا ليست إعادة كتابة التاريخ، لأننا نعتقد بأن الجمعيات مهما كانت ليس لديها حق احتكار التاريخ.

إننا نريد أن نكون المحرك لننجح في مسعانا و يتمكن الناس من التفكير بعقلهم. ولن نتحدث عن "فولتير " وغيره،لان هذه ليست ثقافة. إن الثقافة يجب أن تكون متحررة لأنه بين الثقافة و المعرفة فرق. لكن رغم ضعفي في اللغة العربية فقد قرأت الحضارة الإسلامية في أغلب الحالات عن طريق كتابات المستشرقين والقراءة تكون دائما حذرة ويقظة حتى ولو كان مؤلفها مسلم اسمه " روجي غارودي " .أنا لا اشك أبدا في إخلاص "روجي غارودي". ولكن اعتبره منتوجا ثقافيا معينا ،وأحيانا قد تحيد

نظرته للإسلام كما حادت نظرة البعض. فالتصوف يمكن القول انه "آري" هندي وليس إسلاميا عربيا، وربما نجد لدى الكثير من الأوربيين الذين يعتنقون الإسلام فإنهم يدخلونه عن طريق " ماسينيون " لأن لديهم نظرة عن الإسلام تطابق تمام الفكر و التكوين الفكري للغرب ونحن نأخذ منهم ولكن بعقولنا ونحرر أفكارنا .

يمكنني ذكر عشرة أمثلة على نمط هذين المثلين التي تظهر يوميا أنه رغم التعريب فإن تفكيرنا مازالت متسلطة عليه الثقافة الأجنبية، أنا لا أنادي بشوفينية عربية –إسلامية، لكنني انتقد النزعة الإنسانية الضيقة المنتقصة لأوروبا نزعة إنسانية جنوبية، نزعة إنسانية عربية، نزعة إنسانية إسلامية، لقد قرأنا من قبل الآية التي ترسم لي الطريق، الإسلام هو دين الإنسان والفكر القومي المعاصر بمفهومه الذكي و خال من كل شوفينية والذين يتكلمون عن القومية العربية و ويقولون " ابن قحطان "، والذين يتكلمون عن البربرية و يقولون أولاد الامازيغ وهذا طرح عرقي وليس بطرح حضاري وفلسفي، نحن نقول أن بلادنا كانت أمازيغية ونتشرف بالأمازيغية، ولكن يجب أن نفهم معنى الامازيغية و ليس كما نسمع في التلفزة مثلا، ولكنني اختلف تمام مع من يقول أن " أوغسطين " جزائري إذا طبقنا نظرية " لوبان " Le Pen. أقول نعم " أوغسطين " جزائري بحق الدم و الأرض ولكن طبقا لنظرتي

الثقافية فإنه غير جزائري .دلوني على شيء واحد يجعله جزائريا ، هل كان من خلال كل النتائج الفكري لـ" أوغسطين "، يتكلم عن البربرية ؟ وهل كان يتكلم البربرية؟ وهل كان يتكلم البونية البربرية ؟ إنه لا يعرفها. فقد كان يتكلم اللاتينية، فما هي إذن علاقته بهذا البلد عدا الولادة ؟إنه منتوج ثقافي غربي، فإذا أردنا الحديث عنه كعالم جليل بالنسبة للإنسانية أجل، أما إذا أردنا دراسة علاقته بالجزائر فأنا أختار " دونا " لأنه كان يختلف عنه. هذه ليست شوفينية لان أجدادنا كانوا مسيحيين، لكن جد ذلك الشخص Le Pen ، كان أوغسطين وجدي أنا كان " دونا " الذي كان يصلي بالفنيقية ويقول بان المسيح يفهم كل اللغات."أوغسطين" كان مع الملاكين الكبار ،" أوغسطين" كان رومانيا ولاتينيا قبل أن يكون جزائريا، والآخر (دونا) كان جزائريا يقول بان المسيح جاء للإنسانية كلها. هذه هي الأطروحات. ربما هناك مجهود من طرفي لأتحرر من هذه الثقافة. لكن، ولأن "أوغسطين" خدم روما واللاتينية فقد أصبح قديسا، ولأن " دونا قال يجب أن نصلي بالأمازيغية الفينيقية فقد نفي، هذا هو التسلط الثقافي ليس بقراءة المرحلة الاستعمارية فقط بل بقراءة التاريخ كله. نحن نريد تكوين حضارة البحر الأبيض المتوسط ولكن لا بد أن نتفاهم نحن مع هذه الحضارة، والتاريخ يشهد أنه عندما بدأ الإنسان يفرك عينيه ويرى الطبيعة ويقدر جمالها بدأ الصراع على

جزيرة شرقية إذ هناك طريقتان للتفكير.

أنتم تتذكرون أثناء حرب الخليج عندما قلت لهم نظفوا نظارتكم أن لديكم نظرة مسبقة حولنا، حرروا نظرتكم و علينا نحن كذلك أن ننظف نظاراتنا وتحرير نظرتنا ولنفكر ونعمل بوسائلنا الخاصة وبنظرتنا دون شوفينية، يجب ألا نواجه عنصرية وشوفينية الشمال بعنصرية وشوفينية في الجنوب .

نحن مع فكر إنساني شامل مع الرجوع إلى فلسفة إبراهيم الخليل حيث كان يفترض أن يكون كل الناس على دين واحد أو أديان كلها سامية وليست يهودية كما يعتقد البعض. لأن هناك اختلافا بين الاثنين. إن اليهودية ومن بعدها المسيحية هاتان الدينتان الساميتان أصبحتا أوربيتين كسبتهما بثقافتها اليونانية واللاتينية، ورغم ذلك ظلتا متفقين لأنهما أوربيتان وكل منها أنشأت كنيستها : الكنيسة الأرثوذوكسية لليونانيين وما يحيط بهم،و الكنيسة الكاثوليكية للعالم اللاتيني والكنيسة الانجليكانية للإنجليز و لكنهم يظلون كلهم في مجال الكنيسة، وبعد ذلك يقولون الحضارة اليهودية –المسيحية. نحن نقول :الديانتان اليهودية والمسيحية كانتا ديانتين ساميتين وتم توظيفهما.

والحقيقة أن الحاجز الكبير الذي منع من توظيف الإسلام لنفس الغرض هو انه باستخلاص العبرة من الأديان السابقة جاء القرآن

عربيا وبنبي عربي و لكن دون شوفينية .وهذه هي نقطة الضعف و القوة في الإسلام : وأحيانا تتغلب الشعوبية و ترجع إلى العنصرية ضد العرب وأحيانا الشوفينية العربية (في عهد الأمنيات) تتغلب.

ولكن الطرح الأساسي هو : نحن وطنيون جزائريون قوميون ومفهومنا للقومية العربية، ليس شوفينيا أو عرقيا بل مفهوم حضاري، ثقافي إنساني كن من تكون وانفتح على العالم وتآخي مع العالم واعمل من اجل التآخي مع العالم .

أقول: إن حضارة البحر الأبيض المتوسط، إذا أردنا الرجوع إلى التاريخ، هناك خطأ كبير وقع فيه العرب عندما سموه البحر الأبيض المتوسط ، كان عليهم تسميته "البحر الأحمر " نظرا للدماء التي سالت فيه، أو " البحر الأسود " نظرا للأحزان التي خلفها والصراعات التي كانت موجودة بسبب هذا الفكر الثقافي الشوفيني التوسعي، نحن الآن نريد أن نبني هذه الحضارة ولكن بمفهوم التاريخ. لقد تخلصت المنطقة من الاستعمار . ما أريد قوله هو انه حان الوقت لتحرير فكرنا ليكون فكرا حرا ونظرة جديدة في كتبة وقراءة التاريخ، وأقول أن استغلال الإنسان للإنسان، الاستغلال الاقتصادي، المجازر، هو نتيجة الثقافة التوسعية الغربية التي جاءت مع قرون الإشعاع.

رئيس مؤسسة 08 ماي 1945، كان ينتقل للتفاوض في قضية الأرشيف وهو وجه آخر لكفاح جمعية 08 ماي، ذاكرة الشعوب في

مواجهة ثقافة النسيان وكيف كانت أهداف هذه الثقافة، كيف قاموا بكل شيء ليس فقط لقطع جذورنا وأصولنا بل لأخذ جزء من ذاكرتنا، وفي تقديرنا فإن سرقة الأرشيف سواء كان أوراقا أو منحوتات فهو جريمة ضد الذاكرة و بالتالي فهي جريمة ضد الإنسانية .

تقييم جديد نتيجة، طرح جديد، وفهم جديد لمفهوم الاستعمار الذي هو مفهوم غبي، لقد كان هناك قديما احتلال ومجازر واستغلال اقتصادي ولكن كان ينقص هذا المفهوم الثقافي حتى يصنف كاستعمار حسب مفهومه في المرحلة المعاصرة، مرحلة غيرت وجه العالم، مرحلة حولت العالم، مرحلة رأت انتقال أوروبا من الطابق الأول إلى الطابق الثالث لتنظر ألينا ونحن نازلون إلى أسفل سافلينا.

أقول: انه لازال أمامنا القليل لانتهاء هذا القرن، لقرن العشرين ودخول ألفية أخرى جديدة، دعونا نطلع على تاريخ 1000وعن كتب تلك الفترة. ماذا نجد فيها في مجال البحرية ؟ أقول :" ليس هناك شراع مسيحي واحد يطفو على سطح البحر الأبيض المتوسط. إنه بحر إسلامي". البحر المتوسط لم يتغير في شكله، ما تغير هو أن الشمال متخلف والجنوب والشرق متقدم حضاريا. الحضارة في الجنوب والتعصب والفكر المتعصب في الشمال. قبل ثلاث أو أربع سنوات على حلول السنة الألف ضرب جفاف كبير أوروبا ففسروا ذلك على أن سنة 1000هي نهاية العالم.

فالتفكير الذي يفرض نفسه هو انه لن نجد جوابا وحلولا إذا لم نغير أفكارنا، لماذا تغيرت الأمور هكذا؟ لقد ولدت في العشرينيات وفرنسا كانت تحضر في احتفال مئويتها الأولى لاحتلال الجزائر. أتذكر صورة لقاء "مصالي الحاج" مع "شكيب أرسلان " الذي كان يتساءل : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟نفس السؤال يطرح على هذا القرن.أعيد طرح السؤال، هل وجدنا الجواب على هذا السؤال ؟ لقد جربنا كل الطرق في البداية قلنا أن اليهود أغنياء فأصبح سعر برميل البترول 40 دولارا فصرنا أكبر قوة مالية في العالم ولم نخرج من الحلقة المفرغة.لازلت أؤمن بالقرآن الكريم و إلا لتابعت طرح الأسئلة .أتذكر أنه كانت عجوز يهودية في خراطة لما نقلقها تدعو علينا فتقول: " اللّه يكثركم ويذبذبكم " وفي الحقيقة هي قرأت التوراة بطريقة سطحية. فرب إسرائيل يقول : يا إسماعيل أعطيك تعويضات، أعطيك شعبا كبيرا ولكن شعب المختار والأرض الموعودة فهي لهؤلاء، لهذا قالت قولتها.

شاهدت لافتة منذ عشرين سنة على جامع الأزهر نقول قريبا سنكون مليارا. ماذا يعني كوننا مليارا مذبذبا.

جاء مشكل الأسلحة المعاصرة كان جمال عبد الناصر و الجنرال نجيب يتكلمان عن حرب 1948ويقولان: الأسلحة المعاصرة هي عند اليهود ونحن لا نملكها ،جلبنا الأسلحة وآخر الالكترونيات و

نسينا شيئا واحدا وهو أن الالكترونيات يمكنه التحرير ويمكنه أيضا السيطرة تبعا لتسيير الآلة، بالفكر أو الخضوع لها لعجزنا، إذن لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ أصل إلى خلاصة شخصية جدا، عندما كنا نتكلم عن التاريخ فإن كلامنا يجب أن يكون بنقطة استفهام كل المعارك التي خسرنا: معاركنا هنا في الميدان وعلى الساحة الاقتصادية تأتي من تأخر الرجل العربي والمسلم أمام تفوق الرجل اليهودي. أن تطور الإنسان هو ضرورة مطلقة وإذا طرحنا القضية هكذا فلن نتكلم على الحروب فقط. منذ فترة قننوا توزيع المياه بحيث يكون يوم نعم ويومان لا. إذا تمعنا في ذلك ماذا سيحصل بعد 50 سنة. مشكل المياه بعد 50 سنة مشكل البترول ؟سيقولون لنا يا عرب اشربوا بترولكم لأنهم سيكونون قد طوروا طاقات أخرى.

وادي الرافدين (الهلال الخصيب) وسوريا يعتمدان على مياه دجلة و الفرات اللذين ينبعان من تركيا. و نحن نشهد تقارب إستراتيجيا بين تركيا و إسرائيل. مصر تخضع لمياه النيل ولا شيء يمنع المؤامرات لقطع المياه عنها. نحن كجزائريين بطروحاتنا نقول الثروات"les Ressources" ولا نشخصها، يوميا نقرأ في الصحافة اكتشاف آبار البترول والغاز والمعادن وحتى الذهب، ولكن الحقيقة الملموسة، إن الجزائر لا تختلف جذريا عن السودان. قبل عشرية (10 سنوات)، كنا الرقم 2 في إفريقيا من حيث الدخل

الفردي والقومي وكان السودان أسفل السلم، في القرن الواحد والعشرين هناك ملايير البشر يزدادون، والمواد الغذائية هي التي تلعب الدور الأساسي. كيف نغذي هؤلاء؟.

و هنا تطرح مشكلة الغذاء، نحن هنا في الجزائر نلاحظ أن هناك تزايدا في الثروات البشرية، حيث يتكاثر الناس، أما باقي الموارد فهي في تناقص وحتى لو اكتشفنا ثروات أخرى، و لو عوضنا الـ400000 هكتار من الأراضي التي تجرفها مياه الأمطار عن طريق تكثيف الزراعة هكذا نستثمر الذكاء فمن سينقد هذه البلاد؟ إنه الإنسان، هذه ليست واردة في المحاسبة، فهل وجدتم هذه في أية ميزانية؟ إنكم لا ولن تجدوها، وهذه يجب إضافتها إلى الميزانية، و هذه هي ثروة الغد الحقيقية، فاليابان يفتقر إلى الفلاحة وسوّى مشاكله بتطوير الإنسان، كذلك إسرائيل قضت على مشكلها بتطوير الفرد. و نلاحظ الجيش الإسرائيلي يأتيه يهودي من اليمن يعيش في القرن 14 و 15م مع اليهودي الأمريكي الذي يعيش في القرن الـ21م فتصهرهما إسرائيل في بوتقة الوحدة الوطنية. هناك نظرة ديماغوجية حول الجيش و الجنود والعسكرية والعسكريين في اقتصاد الأمم، ويظهر لنا أن معظم قوة في العالم اليوم، وأن أكبر ديمقراطية أو التي يسمونها ديمقراطية تخضع أبحاثها العلمية بنسبة80% للبنتاغون، فأكبر حصة من الميزانية تخصص للجيش. والجيش هو الذي يسيّر باقي النشاطات الأخرى، لماذا؟ لسبب

بسيط، لأن الجيش ينتهج سبلا مختصرة ليستطيع الجامعيون انتهاجها، إنهم يراقبون الجامعات، لكنهم يسمحون لأنفسهم ببعض الأشياء، و هذه السلسلة الأشياء تتطلب تجديد الاقتصاد و أمورا أخرى.

إن هذا الموضع لا علاقة له بالفكرة التي بدأنا بها حديثنا عن الاستعمار، أنا قلت لكم بأني لا أتكلم عن الاستعمار الفرنسي فقط، إنما أتكلم عن الاستعمار كمصطلح غربي، أنا لست فقط ضد حزب الأجنبي. وأنا عندما أطرح هذه القضية فأنا لا أتكلم عن المقاومة، وضرورة تفكير جديد وتقييم جديد، وأطرح هذا في مختلف الميادين فحتى المصطلحات في السنوات القادمة، فإننا لن نعتبر الفلاحة اقتصادا، إنما نقول بأنها عنصرا من الدفاع الوطني، لأنه يمكنكم الحصول غدا على دولارات، إذا كنتم تفتقرون إلى الفلاحة ولا يمكنكم تحقيق الاكتفاء الذاتي، أو سد جزء من حاجياتكم الغذائية، فإن عدوكم يمنع الغذاء عنكم، فهذا هو التحرر الفكري الذي أردت توضيحه عبر صفحات تاريخ الاستعمار ولإعطاء تقييم جديد و تنبيه جديد.